سلسلة محاضرات الإمارات 74

الإسلام والغرب عقب 11 أيلول/سبتمبر:

حوار أم صراع حضاري؟

د. جون إسبوزيتو



مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

بسم الله الرحمن الرحيم

تأسس مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية في 14 آذار/ مارس 1994، كمؤسسة مستقلة تهتم بالبحوث والدراسات العلمية للقضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية، المتعلقة بدولة الإمارات العربية المتحدة ومنطقة الخليج العربي على وجه التحديد، والعالم العربي والقضايا الدولية المعاصرة عموماً.

من هذا المنطلق يقوم المركز بإصدار «**سلسلة محاضرات الإمارات**» التي تتناول المحاضرات، والندوات، وورش العمل المتخصصة التي يعقدها المركز ضمن سلسلة الفعاليات العلمية التي ينظمها على مدار العام، ويدعو إليها كبار الباحثين والأكاديميين والخبراء؛ بهدف الاستفادة من خبراتهم، والاطلاع على تحليلاتهم الموضوعية المتضمنة دراسة قضايا الساعة ومعالجتها. وتهدف هذه السلسلة إلى تعميم الفائدة، وإثراء الحوار البنّاء والبحث الجاد، والارتقاء بالقارئ المهتم أينما كان.

سلسلة محاضرات الإمارات

ـ 74 ـ

الإسلام والغرب عقب 11 أيلول/ سبتمبر

حوار أم صراع حضاري؟

د. جون إسبوزيتو



تصدر عن

مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

محتوى المحاضرة لا يعبِّر بالضرورة عن وجهة نظر المركز

ألقيت هذه المحاضرة يوم الاثنين الموافق 3 حزيران/ يونيو 2002

الطبعة الأولى 2003

ISSN 1682-122X

ISBN 9948-00-515-5

توجه المراسلات إلى رئيسة التحرير على العنوان التالي:

سلسلة محاضرات الإمارات - مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

ص. ب: 4567

أبوظبي - دولة الإمارات العربية المتحدة

هاتف: 6423776 - 9712 +

فاكس: 6428844 - 9712 +

e-mail: pubdis@ecssr.ac.ae
pubdis@ecssr.com

Website: http://www.ecssr.ac.ae
http://www.ecssr.com

مقدمة

أدت هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر 2001 ضد مركز التجارة العالمي في مدينة نيويورك ومبنى وزارة الدفاع الأمريكية "البنتاجون" في واشنطن إلى تعزيز أصوات أولئك الأشخاص في الغرب الذين سبق أن تحدثوا عن الحرب المقدسة "الأصولية" التي تم تصديرها إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وأدت المخاوف من الإسلام المتطرف والتهديد المستمر النابع من الإرهاب العالمي بالكثيرين إلى التحذير من مغبة "صراع حضارات"، على منوال مواقف الغرب المتكررة تجاه الشيوعية في فترة الحرب الباردة وذلك من خلال تصور تهديد عالمي جديد. وجنح العديد من الحكومات والمحللين الإعلاميين والسياسيين إلى استنتاج وجود تهديد إسلامي عالمي يظنون أنه يُكن عداءً متأصلاً للغرب. واستغل الحكام المسلمون في تونس والجزائر ومصر وتركيا وإندونيسيا وجمهوريات آسيا الوسطى، بالإضافة إلى حكام دول مثل إسرائيل والهند والفلبين، خطر التطرف الإسلامي ذريعة للحصول على المساعدات الخارجية الأمريكية والأوربية والتنصل من الاعتراف بفشل حكوماتهم، كما لجؤوا إلى القمع العشوائي لحركات المعارضة التي تمثل التيار الرئيسي بالإضافة إلى المتطرفين.

وفي الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا، تمسك الذين يعتقدون بحتمية الصراع برؤاهم القائلة بأن ما يشهدونه اليوم ليس سوى أحدث إعادة لمواجهة وصراع قائمين لعدة قرون بين الإسلام والمسيحية، أو بين العالم الإسلامي والغرب.

تاريخ العلاقات بين المسلمين والمسيحيين

رغم العديد من الجذور والمعتقدات الدينية المشتركة الممتدة عبر التاريخ، كان الصراع يلقي بظلاله عادة على العلاقات بين المسلمين والمسيحيين، حيث ظلت الجيوش والدعاة للإسلام والمبشرون بالمسيحية حبيسي صراع متصل لنيل النفوذ وتوسيع دائرة الانتشار. وتفاوتت أشكال هذه المواجهة بين سقوط الإمبراطورية البيزنطية أو الإمبراطورية الرومانية الشرقية السابقة أمام جيوش الإسلام في القرن السابع الميلادي والمعارك الطاحنة واللاهوت الجدلي للصليبيين خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وطرد "المغاربة" من إسبانيا، ومحاكم التفتيش، والتهديد العثماني باجتياح أوربا، والاستعمار والإمبريالية الأوربية المسيحية من القرن الثامن عشر وحتى مطلع القرن العشرين. كما اشتمل الصراع على التحدي السياسي والثقافي للقوى العظمى، الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي السابق، للعالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن العشرين، وإقامة دولة إسرائيل، وتنافس المبشرين المسيحيين والدعاة المسلمين في أفريقيا اليوم، وإعادة تأكيد أهمية دور الإسلام في السياسة خلال العصر الحالي.

اتسمت علاقة الإسلام بالمسيحية والغرب في أغلب الأحيان بقدر من الفهم يقل عما اتسمت به من تجاهل وصراع متبادلين. وقد زادت الصراعات القديمة والحديثة، مثل الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي، من حدة الخلافات إلى درجة التعتيم الكامل على الجذور اللاهوتية والرؤية الدينية المشتركة للتعاليم اليهودية - المسيحية - الإسلامية. وركز الكثيرون على الاختلافات فقط وعملوا على تعزيزها، كما زادوا حدة الاستقطاب

بدلاً من العمل على خلق تقارب بين تعاليم التوحيد العظيمة لهذه الديانات الثلاث المترابطة. وشكل التوسع والنجاح اللذان حققهما الإسلام في بداياته تحدياً عقائدياً وسياسياً وحضارياً صعُب على الكثيرين فهمه، كما شكل تهديداً للعالم الغربي المسيحي. ويمتلك كل من الإسلام والمسيحية طرحاً يتحدث عن رسالة ومهمة عالميتين، وهو طرح، إذا عدنا بالذاكرة إلى الوراء وتأملنا فيه سنجد أنه كان محتوماً أن يؤدي بنا إلى تاريخ تسود فيه المواجهة على التعاون. وللديانتين تاريخ من المد والانتشار؛ ففي بدايات ظهور الديانة المسيحية؛ قام المصلح الديني بول (Paul) بنشر تعاليم الإنجيل عن طريق تقديم الموعظة والتبشير الديني - مختطاً بذلك النموذج السلمي للدعوة الذي انتهجته الكنيسة الشرقية في سنوات لاحقة. غير أن المسيحية في أوربا الغربية انتشرت بالقوة، حسبما ثبت مما قام به شارلمان في أوربا والقادة الذين فتحوا أمريكا اللاتينية، بالإضافة إلى الوسائل السلمية قبل القرن التاسع عشر. وقد ظل الارتباط بين الإرساليات التبشيرية والاستعمار والإمبريالية الأوربية يمثل إشكالية خاصة بالنسبة إلى العالم الإسلامي في القرنين التاسع عشر والعشرين. وبينما استمرت المسيحية والإسلام في الانتشار في قارتي آسيا وأفريقيا إلى وقت قريب جداً، فقد حدثت توترات ووقعت نزاعات بين المجتمعات الإسلامية والمسيحية في مناطق واسعة تمتد من السودان ونيجيريا إلى باكستان وإندونيسيا.

لقد ركزت المقاربات الغربية لفهم الإسلام على تاريخ الفتوحات والتوسعات التي حققتها الإمبراطورية العربية - الإسلامية في عهودها الأولى بواسطة القوة العسكرية. وعلى الرغم من ذلك يفشل الكثيرون في التمييز بين استخدام حد السيف لتوسيع الإمبراطوريات واستغلال الدين

من قبل الحكام لإضفاء الشرعية على الفتوحات، في مقابل الأسلوب الأكثر تعقيداً الذي تم نشر الإسلام به كدين عن طريق العسكر والتجار والطرق الصوفية. ولا يدرك سوى قليل من الذين قالوا بأن الإسلام قد انتشر في بداياته بواسطة حد السيف حقيقة أنه مادام الحكام المسلمون كانوا يستفيدون من جني الضرائب الخاصة التي يدفعها غير المسلمين "الجزية"، فلم تكن هناك سوى رغبة أو حاجة محدودة لدعوة الشعوب إلى الدخول في الإسلام، وعلاوة على ذلك فقد قامت الطرق الصوفية والتجار بنشر الإسلام سلمياً في مناطق ممتدة من أفريقيا إلى جنوب شرق آسيا.

وإضافة إلى ذلك، يرى بعض المسيحيين الشرقيين الذين عاشوا تحت حكم البيزنطيين أن قدوم الإسلام قد عتقهم من دفع الضرائب الأكثر إرهاقاً، وأنه قد منحهم حرية دينية سمحت لهم بالبقاء كمجتمعات مستقلة وبممارسة شعائرهم الدينية. وفي هذه الحالات كان يُنظر إلى الإسلام بوصفه قوة سياسية محرِّرة وليس شراً أو تحدياً للعقيدة المسيحية. كما أن الفتوحات الإسلامية لقارة أوربا كانت عملية أكثر تعقيداً مما تم التوصل إليه في أغلب الدراسات، حيث شهدت تعايشاً ونزاعات أيضاً. وكان المسلمون والمسيحيون يدخلون أحياناً في تحالفات سياسية فيما بينهم ضد أعداء مشتركين أو حينما توجد المصالح المشتركة.

مجالات التعايش والتعاون والتسامح

على امتداد الفترة العظمى من التاريخ الإسلامي كان اليهود والمسيحيون وهم "أهل الكتاب" يُعتبرون شعوباً "محمية" أو أهل ذمة

ويُعاملون بقدر كبير من التسامح في ظل الحكومات الإسلامية، يفوق كثيراً ما لقيته اليهودية والإسلام ومذاهب من المسيحية من عدم اعتراف في عهد الإمبراطورية البيزنطية أو في ظل الكرسي البابوي. غير أن أهل الذمة لم يكونوا رعايا متساوين مع المسلمين، فقد كانوا يدفعون ضرائب أعلى من المسلمين مقابل حرية ممارسة شعائرهم الدينية في خصوصية. وتاريخياً، نجد أنهم قد مُنحوا بشكل عام حق إدارة مجتمعاتهم وممارسة شعائرهم الدينية. ولكن مع مرور الوقت، أضحت ممارسة الشعائر الدينية في الخفاء تعني أنه لم يعد باستطاعة أهل الذمة بناء الكنائس ودور العبادة أو صيانتها من دون الحصول على تصريح بذلك، أو المجاهرة بالدعوة إلى إقامة الصلوات، وإظهار الرموز الدينية بشكل علني، والشهادة ضد المسلم في المحكمة أو الزواج من امرأة مسلمة. كما كان يُطلب من أهل الذمة في بعض الأماكن ارتداء ملابس خاصة لتمييزهم بوصفهم غير مسلمين.

ومع انتشار الإسلام كإمبراطورية وحضارة، فقد ثبت انفتاحه على العديد من الديانات والثقافات التي صادفها. واستطاعت الثقافة الإسلامية الأصيلة استيعاب عناصر من القوانين المسيحية واليهودية والزرادشتية، والممارسات الإدارية والتقاليد الملوكية المتبعة في الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية (الفارسية)، والعلوم والفلسفة وهندسة العمارة والفنون الإغريقية، بالإضافة إلى تأثيراتها العربية والإسلامية. واهتم العباسيون بترجمة أمهات الكتب اليونانية القديمة في مجالات الفلسفة والعلوم والطب إلى اللغة العربية. وشكلت هذه التراجم ركام المعرفة والمواد الأساسية التي قام روجر الثاني الصقلي بنقلها من اللغة العربية إلى اللاتينية لاحقاً. إن هذه الفترة، التي تُذكّرنا بالعهد الذي قام فيه الحكام المسلمون

باستيعاب المسيحيين ضمن حياة بلاط الحكم تعطي نموذجاً إيجابياً للتلاقح الثنائي والتسامح المتبادل، حيث كان المسلمون أيضاً يُستوعبون في مناصب سياسية وفكرية كمهندسين ومعماريين وشعراء للبلاط وكباحثين في المملكة المسيحية والعكس صحيح. كما كانت طليطلة في القرن الثاني عشر قبلة ومركزاً رئيسياً للدراسة يقصدها الباحثون من طلاب العلم من كافة أنحاء أوربا وقد جاؤوا للعمل مع نظرائهم الذين تعتبر العربية هي لغتهم الأم. إن هذا الاستيعاب لأكثر العناصر تقدماً من الحضارات المحيطة والسابقة يُظهر انفتاحاً على الفوائد التي يمكن أن تُجنى من خلال إتاحة شكل محدود من التعددية الثقافية والحضارية والعلمية والدينية، وقد اقترن هذا الاعتراف والإدراك بقدر مماثل من التسامح.[1]

ويمكن العثور على نماذج أخرى للعلاقات بين المسلمين والمسيحيين. ففي عام 1076 تقدم السلطان الناصر حاكم بجاية بطلب إلى البابا جريجوري السابع لتنصيب قس محلي ليرعى الشؤون الخاصة بالسكان المسيحيين. كما قام الإمبراطور المسيحي شارلمان والخليفة العباسي هارون الرشيد باتخاذ الترتيبات اللازمة لتسهيل سفر المسيحيين إلى الأرض المقدسة، حيث شيدا نُزلاً في مدينة القدس للحجاج المسيحيين، إضافة إلى إقامة نُزل مماثلة على امتداد الطريق التي يمر بها الرهبان المسيحيون القادمون من فرنسا لزيارة الأماكن المقدسة.

الأندلس: تعايش الحضارات

يُعتبر الحكم الإسلامي في إسبانيا، الأندلس، خلال الفترة من عام 756 إلى حوالي عام 1000 للميلاد أشهر النماذج دلالة على التعايش والتسامح بين الأديان والحضارات، وغالباً ما يشار إليه باعتباره نموذجاً

مثالياً لفترة من الوئام بين الأديان. ويعود جزء من الإعجاب الذي عبر عنه المسيحيون واليهود بهذا العهد إلى الفرصة التي منحها الحكم الإسلامي إلى أولئك الذين جاؤوا يبحثون عن ملجأ هرباً من عنت النظام الطبقي الحاكم القديم في أوربا. وجلب الحكم الإسلامي معه القضاء على سيادة طبقتي النبلاء والكهنة، وقام بإعادة توزيع أراضيهم على النحو الذي أدى إلى تأسيس طبقة جديدة من صغار مُلاك الأراضي الذين يعود إليهم الفضل الأعظم في تولي مسؤولية تحقيق الازدهار الزراعي في إسبانيا إبان الحكم الإسلامي.

وعلى الرغم من ظهور توتر بين الجاليات المسلمة والمسيحية واليهودية فقد تقلد المسيحيون واليهود مناصب رفيعة في بلاط الخليفة في القرن العاشر حين عملوا مترجمين ومهندسين وأطباء ومعماريين. كما أرسل الخلفاء الأمويون الأساقفة النصارى في مهمات دبلوماسية ذات أهمية. وقام كبير أساقفة أشبيلية بترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية وأعد تفسيراً له باللغة نفسها ليستفيد منه المسيحيون الناطقون بالعربية. وكان التسامح والتفاعل الاجتماعي بين الجماعات الدينية على المستويات العليا من أبرز سمات تلك الفترة؛ فقد اتخذ المسيحيون المنتمون إلى الطبقات الاجتماعية العليا الأسماء العربية لذويهم وطبقوا جوانب أخرى من الثقافة العربية بما في ذلك ارتداء الحريم للخمار بهدف إبراز مكانتهن الاجتماعية وتعزيزها، وامتنعوا عن أكل لحم الخنزير، وقاموا بدمج الموسيقى العربية والشعر العربي في ثقافتهم. كما حدثت حالات زواج بين أفراد من ديانات مختلفة ينتمون إلى مستوى الطبقة العليا. ولهذا النموذج أهمية، غير أنه في حاجة إلى موازنة مع ما استقيناه من السجلات التي تشير إلى أن الاتصالات

الكلية والفعلية بين المسيحيين والمسلمين كانت محدودة نسبياً. ورغم ذلك، فقد أبدى المسلمون تسامحاً أقل تجاه المسيحيين في المناطق الخاضعة لحكمهم بعد القرن العاشر خلال حكم الخليفة المنصور.

الصراع والمواجهة الدينية/السياسية

من الناحية التاريخية، تتملك المسيحيين والمسلمين ذكريات مريرة عن فترات الاحتلال وعدم التسامح، فقد تعرض المسيحيون إلى خسائر خلال توسع الإمبراطوريتين الإسلامية والعثمانية، كما عانى المسلمون الخسائر الجسيمة عقب سقوط الأندلس وفي النضال من أجل الاستقلال خلال الهيمنة الاستعمارية الأوربية على معظم أرجاء العالم الإسلامي. واليوم فإن تجدد ذكريات الماضي، وما نشهده من صراعات متواصلة على النطاق العالمي في فلسطين ونيجيريا والسودان والشيشان، بالإضافة إلى بروز الإسلام ليصبح ثاني أو ثالث أكبر ديانة في أوربا والولايات المتحدة الأمريكية، تعزز فينا إحساساً أقوى بالحاجة إلى قدر أكبر من التعددية والتسامح لكي نتجنب تكرار ظواهر التعصب والانتقام التي سادت في الماضي. ويواجه المسلمون والمسيحيون اليوم تحديات وهموماً مشتركة تشمل تفشي العلمانية والنزعة المادية، والانهيار الأخلاقي للمجتمع، وانهيار مؤسسة الزواج والأسرة، ومشكلات إدمان المخدرات والكحول وتفشي الزنا. وتؤثر هذه التحديات الأخلاقية والاجتماعية في المسيحيين والمسلمين على حد سواء. ويواجه الجميع في القرن الحادي والعشرين تحدي استذكار الإرث الإيجابي للتعايش إضافة إلى إعادة تفسير رؤاهم الدينية الكونية وتوسيعها واتخاذ هذه العناصر قاعدة يرتكزون عليها في التأسيس للمستقبل.

وهناك العديد من الأمثلة التي تدل على تبني المسلمين النقاش والحوار بين الأديان على مدى القرون الماضية. فقد أدى حوار النبي محمد ﷺ مع نصارى نجران إلى إقامة علاقة مقبولة لدى الطرفين حيث سُمح لأهل نجران بالصلاة في مسجد الرسول ﷺ. وبادر الخليفة الخامس معاوية (661-769 ميلادي) بتوجيه دعوات منتظمة إلى المسيحيين اليعاقبة والموارنة المنخرطين في مناظرات للحضور وإجراء حواراتهم في بلاط الخلافة. كما تم توجيه دعوة إلى يوحنا الدمشقي، وهو من نصارى سوريا، للحضور إلى بلاط الخلافة والمشاركة في حوار حول الاعتقاد بألوهية المسيح ومفهوم التخيير والتسيير. كما جرت حوارات بين المسلمين واليهود في بلاط الحكم في إسبانيا المسلمة (دولة الأندلس). وفي القرن السادس عشر، قام الإمبراطور أكبر (Akbar) برعاية حوار ديني بين قساوسة كاثوليك وعلماء مسلمين في فاتح بور سِكري في الهند. وعلى غرار الحوارات التي جرت تحت رعاية المسيحيين فإن هذه الحوارات أيضاً لم تكن تجري دائماً بين طرفين "متكافئين"، وفي الواقع تم تنظيم العديد منها بهدف "إثبات" أن الدين الآخر على "خطأ". بيد أن حقيقة السماح بإجراء الحوارات وتشجيعها تدل على وجود درجة من التواصل المنفتح بين الأديان خلال فترة من أفضل مراحل الازدهار في مجالات الإنجاز التعليمي والثقافي في العالم الإسلامي.

وتحظى الحروب الصليبية بشهرة واسعة وتُذكر بوصفها حرباً نشبت بين المسيحية والإسلام لإقامة ممالك سياسية. وتُركز الدراسات التقليدية لتاريخ هذه الحرب على الاختلافات بين الجانبين، ومع ذلك فقد كانت هناك أوجه تشابه ولحظات إيجابية من التعايش والتعاون بينهما. فقد

اشترك المسيحيون والمسلمون في تبني المثل العليا الثقافية المتمثلة في حب الفروسية والولاء والشجاعة والشرف . وفي الواقع فقد حظي القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي باحترام وإعجاب شديدين من قبل المسيحيين وخاصة ريتشارد الأول ، قلب الأسد ، وذلك لتمتع صلاح الدين بصفات الرحمة بالآخرين والنبل والشجاعة . وبالمثل ، فقد حظي القديس فرانسيس من أسيسي (Assisi) باحترام المسلمين الذين دعاهم إلى الدخول في المسيحية ؛ وذلك لما أبداه من سلوك نموذجي في التقوى وتوقير الآخرين . وتم عقد بعض المعاهدات في القرن الثالث عشر بين المسيحيين والمسلمين ، حيث سمح المسلمون للمسيحيين بحرية الوصول إلى الأماكن المقدسة التي استعاد المسلمون سيطرتهم على المناطق التي تقع فيها . وكان فرانسيس قد التقى السلطان الملك الكامل ، ابن شقيق صلاح الدين الأيوبي ، في سنة 1219 ميلادية ونتج عن هذا اللقاء سماح السلطان بحرية العبادة لأكثر من 30 ألفاً من السجناء المسيحيين لديه حينما توقفت حالة العداء وتخييرهم بين العودة إلى بلادهم أو القتال إلى جانب قوات السلطان .

الحوار المعاصر

في السنوات الأخيرة ، بدأ الكثير من المسلمين - الذين يعزون فشل مجتمعاتهم إلى اعتمادها المفرط على الحكومات الغربية وينسبونه إلى هيمنة الحكومات والقيم والثقافة الغربية على مجتمعاتهم - يرفضون الحكومات العلمانية والمؤسسات الدينية المحافظة على حد سواء ويحملونها مسؤولية الفترة الطويلة من الانحطاط الأخلاقي والتراجع الذي تعانيه مجتمعاتهم . ولذلك ، فقد عمت الدعوة إلى النهضة الإسلامية واسترجاع الهوية الإسلامية معظم أرجاء العالم الإسلامي .[2]

وكانت عملية مشابهة إلى حد ما قد وقعت في العالم المسيحي خلال فترة الإصلاح الديني في القرنين الخامس عشر والسادس عشر من الميلاد ؛ فقد بدأ الكثيرون في أوربا ، ممن أصيبوا بالصدمة نتيجة فشل حكامهم في إيجاد حلول للمشكلات الاقتصادية والاجتماعية التي سادت خلال تلك الفترة ، بالإضافة إلى اضمحلال الكنيسة الأرثوذكسية وفسادها ، بالضغط من أجل العودة إلى الأسس التي قامت عليها العقيدة الدينية . وأكدوا على إعادة دراسة المفاهيم والمقاصد الإلهية للحضارات الإنسانية وإعادة توجيهها والإصرار على ضرورة اتباع أوامر الله للمجتمع كوسائل لبعث الحضارة المسيحية . وعلى نحو مماثل أدان البابا ليو الثالث عشر في مطلع القرن الماضي التعددية والنزعة التطوعية على الطريقة الأمريكية كأنماط سلوكية تم طرحها لكي تتبناها الكنيسة (Longinqua Oceani, 1895) . كما انتقد المجتمع الأمريكي ومذهبه الاقتصادي (Rerum Novarum, 1891) بسبب المنافسة الاقتصادية غير المقيدة وتجاوزات الرأسمالية التي أفرزها هذا المجتمع . ولم تقبل الكاثوليكية مبدأ التعددية الدينية بشكل رسمي حتى حل عقد الستينيات من القرن العشرين وفي ظل عهد مجلس الفاتيكان الثاني .

الإسلام والغرب: صراع حضارات؟

حذر صامويل هنتنجتون في مقال مثير للجدل نشر عام 1993 بعنوان " صراع الحضارات؟ " من أن «صراع الحضارات سوف يهيمن على الحياة السياسية العالمية» .[3] وقد اعتبر الكثيرون في العالم الإسلامي أن هذا الأكاديمي الأمريكي وأحد قادة الرأي المهمين ، الذي تقلد أيضاً منصباً رفيعاً في حكومة بلاده ، يعبر عما كانوا يعتقدونه دوماً موقف الغرب تجاه الإسلام . وإذا كان بعض الأكاديميين والمسؤولين الحكوميين قد سارعوا إلى

النأي بأنفسهم عن موقف هنتنجتون، فقد أظهرت أرقام مبيعات كتابه الذي أصدره لاحقاً وترجماته إلى العديد من اللغات، ثم العدد الكبير من المؤتمرات الدولية والإصدارات التي عالجت هذا الموضوع، أن هناك "سوقاً رائجة" لموضوع "الصراع". وقد أحيت هجمات 11 أيلول/ سبتمبر والتهديد العالمي الذي شكله أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة بشكل مفاجئ فكرة العودة إلى طرح موضوع "صراع الحضارات" للبحث عن إجابة سهلة عن السؤال: «لماذا يكرهوننا؟»

ويصف هنتنجتون الإسلام والغرب، كما يفعل الكثيرون اليوم، بأنهما عدوان منذ عهد قديم، حيث يقول: «ظل الصراع على امتداد خط الصدع بين الحضارتين الغربية والإسلامية مستمراً لمدة 1300 عام».[4] وقد فسر مقاومة الحضارة الإسلامية للنماذج التنموية الغربية العلمانية بوصفها معادية بالضرورة لحقوق الإنسان وللتطور، وفي هذا الصدد يقول: «إن الأفكار الغربية عن الفردية والتحررية والدستورية وحقوق الإنسان والمساواة والحرية وسيادة حكم القانون والديمقراطية وسياسة الأسواق الحرة وفصل الدين عن الدولة ليس لها في أغلب الحالات أي صدى في الثقافة الإسلامية . . . [وغيرها] من الثقافات».[5]

وخلُص هنتنجتون في كتابه الذي أصدره عام 1997 توسعة للموضوع نفسه، إلى أن «الحدود الفاصلة للإسلام دموية وأن مكوناته الداخلية دموية أيضاً».[6] وتجاوزت إدانته الشاملة مسألة الأصولية الإسلامية لتشمل الإسلام نفسه؛ إذ يقول: «إن المشكلة الأساسية بالنسبة للغرب ليست الأصولية الإسلامية، بل هي الإسلام نفسه الذي يعتبر حضارة متباينة، أصحابها مقتنعون بتفوق ثقافتهم ويتملكهم هاجس الإحساس بدونية

قوتهم».[7] وعلى الرغم من أن هنتنجتون قد شذب موقفه الآن بقدر كبير، فقد أدت هجمات 11 أيلول/ سبتمبر إلى إطلاق عنان أشكال جديدة "مُحدثة" مما سمي "التهديد الإسلامي" حيث وجد الكثيرون أن من مصلحتهم بقدر أكبر اللجوء إلى استخدام الصور النمطية الملائمة لما يسمونه إسلاماً شمولياً، وصراعاً تاريخياً بين الحضارات وصراعاً بين الإسلام والحداثة، بدلاً من الانكباب على دراسة الأسباب السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية المعقدة لظاهرة الإرهاب.

واستشهد مروجو نظرية الصراع بتنظيم القاعدة وبن لادن بوصفهما مؤشرين واضحين على هوة فاصلة لا يمكن تجسيرها بين عالمين مختلفين كثيراً. وعلى نحو مماثل فإن الحرب المعلنة من قبل المتطرفين المتشددين والإرهابيين، باسم الإسلام، ضد الحكومات الإسلامية المتخندقة والغرب، يتم الاستشهاد بها أيضاً كدليل على أن الإسلام لا يتوافق مع الديمقراطية. غير أنه، وبينما نجد أن أفعال الجماعات المتشددة والحكومات المستبدة - الدينية وغير الدينية - تعزز هذا المفهوم الذي يتحدث عن صراع حضارات، فإن الحقائق على أرض الواقع تشكل مشهداً أكثر تعقيداً.

ولا يُعتبر أي من العالم الإسلامي أو الغرب كياناً شمولياً، فالمصادر المشتركة للهوية - كاللغة والدين والتاريخ والثقافة - تكون مفيدة عندما تتعرض المصالح القومية أو الإقليمية إلى خطر. وفي حين أن بعض المسلمين، كما حدث في الثورة الإيرانية، قد حققوا وحدة عابرة في مواجهة عدو مشترك، فإن تضامنهم سرعان ما يتبدد حال انحسار الخطر العام ويقومون بتغليب المصالح المتنافسة مرة أخرى. وهنالك فيض من الأدلة التي تثبت عدم وجود إسلام متناغم كلياً في شكل كتلة واحدة؛ إذ

إن عجز كل من القومية/ الاشتراكية العربية، والإسلام السائد في عموم المملكة العربية السعودية، أو ثورة الجمهورية الإسلامية في إيران، عن توحيد وحشد العالمين العربي والإسلامي، ثم التنافس والنزاعات بين الدول مثل مصر وليبيا والسودان والمملكة العربية السعودية، وتفكك التحالف العربي - العراق ودول الخليج العربية - الذي كان قائماً ضد إيران وانفضاضه عقب انتهاء الحرب الإيرانية ـ العراقية، والغزو العراقي لدولة الكويت، والانقسامات التي شهدها العالم الإسلامي أثناء حرب الخليج الثانية عام 1991 هي مجرد أمثلة قليلة فحسب، وإن فشل أسامة بن لادن في حشد تأييد الأغلبية العظمى من المسلمين على نحو فاعل، والذين يبلغ عددهم الكلي نحو 1.2 مليار نسمة في العالم الإسلامي، وفشله في استقطاب أغلبية الزعماء الدينيين في حربه غير المقدسة، على الرغم من تمدد شبكته على الصعيد العالمي، يعتبر تذكيراً بأن المسلمين، كما هي الحال بالنسبة لأي مجتمع ديني عالمي، متنوعون بالفعل. وكما يبين لنا التاريخ الإسلامي بقدر كبير من الأدلة، فإن الإسلام المعبر عن التيار الرئيسي في المجتمع، في نواحي القانون والنظام اللاهوتي وعلى صعيد الممارسة أيضاً، كان يعمل دائماً في نهاية المطاف على رفض أو تهميش المتشددين والجماعات المتطرفة التي عُرفت في الماضي مثل الخوارج والحشاشين (القتلة المتعصبين إبان الحروب الصليبية) وصولاً إلى الحركات المتطرفة المعاصرة مثل تنظيم القاعدة.

هل هي حرب ضد الإرهاب العالمي أم ضد الإسلام؟

توخى الرئيس الأمريكي جورج بوش (الابن) والعديد من صناع السياسة الحذر في الفترة التي تلت هجمات 11 أيلول/ سبتمبر، وأكدوا أن

الولايات المتحدة الأمريكية تشن حرباً ضد الإرهاب على النطاق العالمي وليس ضد الإسلام. وزار الرئيس بوش مسجداً كبيراً في واشنطن، واجتمع مع قادة الجالية الإسلامية، وأعاد تأكيد احترامه للدين الإسلامي والحاجة إلى التفرقة بين الدين الإسلامي وأفعال الإرهابيين. غير أن استمرار الولايات المتحدة الأمريكية في حربها الموسعة دولياً وداخلياً ضد الإرهاب، والخطاب الحماسي وسياسات الإدارة التي رافقت هذه الحرب أقنعت الكثير من المسلمين أن هذه الحرب هي في واقع الأمر حرب ضد الإسلام والمسلمين.

وعلى الرغم من اعتذار الرئيس بوش ووزارة الدفاع الأمريكية "البنتاجون" عن استخدام مصطلحي "الحرب الصليبية" و"العدالة الأبدية" في بداية الأمر، فقد تم بعد عدة أشهر لاحقة إطلاق اسم "الجبهة الخضراء" على عمليات المداهمة ضد المؤسسات الإسلامية ومنازل المسلمين في شمال ولايتي فرجينيا وجورجيا الأمريكيتين، التي كان يُشتبه في قيامها بعمليات تبييض للأموال التي كانت تذهب إلى الجماعات "الإرهابية"، مما أعاد فتح التساؤلات بشأن الموقف الحقيقي والدوافع التي تحكم تصرفات الإدارة الأمريكية. وأدى ميل الرئيس بوش وإدارته إلى إدانة الإرهاب الفلسطيني وعدم شجب الوحشية والعنف والإرهاب الإسرائيلي بقدر متساو من القوة إلى إثارة غضب الكثيرين الذين يشاهدون كل يوم "التطهير العرقي" الذي يمارسه الجيش الإسرائيلي في مدن وقرى الضفة الغربية وقطاع غزة.

لقد أقنعت الحرب الدائرة ضد الإرهاب والمسار الذي سارت عليه الكثيرين في العالم الإسلامي بأنها حرب موجهة ضد الإسلام والمسلمين.

وقد ساعدت عوامل عديدة على تعزيز هذا المفهوم والاعتقاد، مما ساهم بقدر كبير في إثارة غضب عارم وعداء واسع ضد الولايات المتحدة الأمريكية في المجتمعات الإسلامية كافة. ومن تلك العوامل توسيع نطاق الحملة العسكرية التي تتزعمها الولايات المتحدة الأمريكية إلى خارج أفغانستان، واستخدام مصطلح "محور الشر"، واستمرار السياسة المنحازة إلى إسرائيل من جانب إدارة الرئيس بوش والكونجرس الأمريكي خلال الأزمة والمجزرة اللتين تدور رحاهما حالياً.

أعلنت إدارة الرئيس بوش في البداية أن هدف الحملة العسكرية في أفغانستان هو القبض على أسامة بن لادن وأعضاء تنظيم القاعدة وتقديمهم للمحاكمة. وعندما رفضت طالبان تسليم بن لادن وحذرت من أنها ستقاوم القوات الأمريكية عسكرياً تم توسيع نطاق الحرب لتشمل إطاحة نظام طالبان. وكانت عمليات القصف الواسعة النطاق والمكثفة في أفغانستان، وما رافقها من وقوع خسائر فادحة بين المدنيين، وفتح جبهات أخرى في الفلبين واليمن وباكستان، ووصف العراق وإيران وسوريا بأنها دول تمثل "محور الشر"، قد بلغت ذروتها في السياسة التي اتبعتها إدارة الرئيس بوش تجاه قضية فلسطين وإسرائيل. وأدى الفشل في الاعتراف بخطأ الاستفزازات التي قام بها أرئيل شارون وشجبها وهي التي أطلقت شرارة اشتعال الانتفاضة الثانية، بسبب زيارته للحرم القدسي الشريف، وقيام إسرائيل بالغزو والتدمير المستمرين للمدن والقرى الفلسطينية في الحرب ضد ما سمته "الإرهاب الفلسطيني"، أدى كل ذلك إلى تغذية مشاعر الغضب التي شهدناها في أنحاء العالم الإسلامي كافة. وكان الافتقار إلى التكافؤ والتوازن في الخطاب والسياسة، عندما وجهت إدارة الرئيس بوش انتقادات إلى الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات وحملته

المسؤولية الكاملة عن الهجمات الانتحارية بينما أشادت بشارون واعتبرته رجل سلام، قد أدى إلى تعزيز الاعتقاد الشعبي بصحة وجود تحالف بين بوش وشارون، أي تحالف أمريكي-إسرائيلي.

وفي الوقت نفسه تكشف التغطية الإخبارية في وسائل الإعلام وافتتاحيات الصحف الأمريكية عادة عن وجود تناقض صارخ مع التغطية الإعلامية وافتتاحيات الصحف في أوربا والعالمين العربي والإسلامي. كما أن الاختلافات بين برامج هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي BBC) أو قناة "الجزيرة" وبين برامج شبكة التلفزة الأمريكية (سي إن إن CNN) وقناة الأخبار (فوكس نيوز Fox News) والتناقض الحاد بين ما يرد في العناوين الرئيسية للصحف الأمريكية والتغطية الإعلامية في وسائل الإعلام الأمريكية لما جرى في جنين ونابلس وبيت لحم، بالإضافة إلى الاختلاف الواضح بين ما حوته مقالات تقييم إدارة الرئيس بوش في صحف أمريكية؛ مثل نيويورك تايمز *New York Times* وول ستريت جورنال *Wall Street Journal* وواشنطن بوست *Washington Post* وبين ما تحويه التغطية الإعلامية الواردة في نظيراتها من صحف أوربا توضح لنا هذا التباين. وعلاوة على ذلك يتضح عمق الانحياز الإعلامي ومداه بصورة جلية في افتتاحيات وأعمدة الرأي ومقالات المعلقين؛ أمثال بيرنارد لويس (Bernard Lewis)، ودانييل بايبس (Daniel Pipes)، وتشارلز كراوتهامر (Charles Krauthammer)، ووليام سافير (William Safire)، وستيفن ايميرسون (Steven Emerson)، وجوديث ميلر (Judith Miller)، ومارتن كريمر (Martin Kramer)، وايه ام روزنتال (AM Rosenthal)، ووليام كريستول (William Kristol)، وجورج ويل (George Will)،

ومارتن بيريتز (Martin Peretz)، ومورتون زكرمان (Morton Zuckerman)، ونورمان بودوريتز (Norman Podhoretz)، وآخرين في صحف؛ مثل *Wall Street Journal*، و*New York Times*، و*Washington Post*، و*The New York Post*، و*The New Republic*، و*The Weekly Standard*، وناشيونال ريفيو *National Review*.[8] وعلى الرغم من اختلاف هذه الصحف والإصدارات فإنها جميعاً تربط الحرب ضد الإرهاب والخطاب المعادي للإسلام بموقف منحاز إلى إسرائيل وغير منتقد لها.[9] ونتيجة لذلك يتم وصم الفلسطينيين بشكل مستمر بأنهم معتدون وحشيون، بينما يتم تصوير الإسرائيليين وكأنهم ضحايا أبرياء على الرغم من قوة النيران العسكرية غير المتكافئة التي تملكها إسرائيل والعدد الأكبر كثيراً من القتلى والجرحى الفلسطينيين مقارنة مع خسائر الجانب الإسرائيلي.

أبرزت وسائل الإعلام الأمريكية، بشكل صحيح، التأثير المرعب للهجمات الانتحارية في المدنيين والأطفال الإسرائيليين الأبرياء، لكنها فشلت في توفير تغطية إخبارية وصور ذهنية مساوية للوحشية والرعب وحالات القتل والإصابات والخسائر التي يتعرض لها المدنيون الفلسطينيون. وتركز المقالات المنشورة في الصحف الأمريكية على إبراز تنامي مشاعر العداء للسامية لكنها تلتزم الصمت حيال التنامي المماثل لمشاعر العداء ضد العرب والمسلمين. ويجري تصوير عرفات على أنه مسؤول عن أعمال إرهابية في حين يتم تجاهل سجل شارون الحالي والماضي (مذبحة صبرا وشاتيلا). ولا يوجد توازن في إبراز فشل كل من عرفات وشارون، ولا في وصف الفلسطينيين والإسرائيليين على أنهم محاربون وضحايا في آن معاً. وفي الوقت نفسه فإن التحالف بين اليمين

الإسلام والغرب عقب 11 أيلول/ سبتمبر: حوار أم صراع حضاري؟

المسيحي والمحافظين الجدد في الحزب الجمهوري الذين يتبنون جدول أعمال ديني/ عقائدي مناصر لإسرائيل والصهيونية يزيد من تفاقم الوضع. وتعمل مطالبة هذا التحالف باستهداف ما يسمونه الدول "الإرهابية"، بدءاً من ليبيا والسودان وانتهاء بإيران والعراق وسوريا، على تأكيد صحة اعتقاد أولئك القائلين بوجود "مؤامرة" واسعة النطاق ضد الإسلام.

إن الصورة التي أفرزها هذا الوضع عن الولايات المتحدة الأمريكية وسياستها الخارجية تتجه بصورة متزايدة إلى التحول إلى صورة عن أمريكا "إمبريالية" تستخدم قوتها العسكرية والسياسية المتفوقة بشكل منفرد وغير متكافئ وعشوائي في حرب موجهة ليس ضد الإرهاب العالمي والمتطرفين الدينيين فحسب، ولكن ضد الإسلام والعالم الإسلامي أيضاً. ويؤدي فشل الإدارة الأمريكية في ممارسة التوازن والتكافؤ في الخطاب والسياسة فيما يتعلق بالنزاعات في فلسطين-إسرائيل، والهند-باكستان، وروسيا-الشيشان إلى تغذية مشاعر العداء إزاء الولايات المتحدة الأمريكية في أوساط الرأي العام الذي يتبناه التيار الرئيسي في المجتمعات المختلفة، بالإضافة إلى تغذية مشاعر الكراهية ضد الولايات المتحدة الأمريكية بين المتطرفين. وهناك نزعة متنامية وسط كل ألوان الطيف السياسي نحو الاعتقاد بوجود صراع بين الحضارات تلوح نذره في الأفق، وأن هذا الصراع قد أثارته الولايات المتحدة الأمريكية وتنظيم القاعدة وجهات متطرفة أخرى.

السياسة الخارجية الأمريكية في العالم الإسلامي

أضحت الشعارات مثل "صراع الحضارات"، وحرب بين العالم المتحضر والإرهابيين، أو ضد الأصوليين الذين يكرهون الديمقراطية

الغربية والرأسمالية والحرية، أو حرب ضد قوى "الشر" و"تجار الموت" شائعة عقب 11 أيلول/ سبتمبر، لتؤكد حقيقة وجود عالمين؛ أبيض وأسود، يحجب الواقع الأعمق والقضايا الماثلة التي ظلت قائمة منذ أمد طويل.[10] وعلى نحو مماثل أدى الاعتقاد القائل إن القوة الطاغية قد حققت نصراً سريعاً في أفغانستان إلى تحويل الأنظار عن الحاجة إلى معالجة طبيعة التهديدات الفعلية والمستقبلية ودراسة مسبباتها. هناك آخرون أمثال أسامة بن لادن موجودون على أرض الواقع، كما أن الظروف السياسية والاقتصادية التي يمكنهم استغلالها لتجنيد عسكر جدد لخوض حروبهم غير المقدسة ماتزال قائمة.[11]

وقام أسامة بن لادن على نحو ذكي، مثلما فعل العلماني صدام حسين وآية الله الخميني من قبله، بتحديد مظالم معينة تكنها شريحة كبيرة من المسلمين، معظمهم ليسوا من المتطرفين، ضد الأنظمة الحاكمة في الدول الإسلامية والولايات المتحدة الأمريكية. ومن ثم عمل بن لادن على استغلال النصوص والعقائد الدينية لتسويغ "جهاده" الذي يستخدم فيه العنف والإرهاب. إن نزعة العداء للولايات المتحدة الأمريكية ليست مدفوعة بفعل الكراهية العمياء التي يكنها المتطرفون فحسب، بل يدفعها أيضاً الغضب والإحباط الواسع النطاق تجاه السياسة الخارجية الأمريكية في أوساط الكثيرين في المجتمعات العربية والإسلامية ومنهم المسؤولون الحكوميون والدبلوماسيون والعسكريون ورجال الأعمال والاختصاصيون والمفكرون والصحفيون. ويكن الكثير من هؤلاء إعجاباً بالمبادئ والقيم الأساسية التي يتبناها الغرب، مثل المشاركة السياسية واحترام حقوق الإنسان ومبدأ المحاسبة والحريات الأساسية مثل حرية التعبير والفكر وحرية الصحافة. وعلى الرغم من ذلك، فإنهم يعتقدون أيضاً بوجود

معايير مزدوجة؛ إذ إن هذه المبادئ والقيم الأمريكية يجري تطبيقها بشكل انتقائي أو لا يجري تطبيقها البتة عندما يتعلق الأمر بالعالم الإسلامي.

يعود جزء من المشكلة التي واجهها الأمريكيون في فهم أسباب نزعة العداء ضد بلادهم إلى فشلهم في إدراك أن العرب والعالم الإسلامي بشكل عام يرون أكثر مما يراه الأمريكيون. فقد أضحت الولايات المتحدة الأمريكية، خلال السنوات الأخيرة، أقل إحاطة بالشؤون الدولية وأكثر انشغالاً بالقضايا المحلية. ويرى العديد من أعضاء الكونجرس أنه لا يوجد أي سبب للسفر إلى الخارج، حيث قال أحد زعماء الكونجرس البارزين ساخراً إنه زار أوربا مرة واحدة ويرى أنه لا يوجد أي سبب لعودته إلى هناك. كما قامت شبكات التلفزة الكبرى والصحف الأمريكية الرئيسية بتقليص أعداد مكاتبها ومراسليها في الخارج، وتوسعت التغطية الإخبارية المحلية على حساب توسيع مدارك الوعي الشعبي الأمريكي بالشؤون الدولية. ولم يعد الكثيرون في العالم الإسلامي اليوم – على نقيض ما كان يحدث في الماضي – يعتمدون على شبكة التلفزة الأمريكية (سي إن إن CNN) وهيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي BBC) للحصول على أخبار العالم. وتوفر وسائل الإعلام والمطبوعات العربية والإسلامية الدولية تغطية إخبارية يومية للشؤون الدولية، وتجلس العائلات في العالم الإسلامي أمام أجهزة التلفاز لمشاهدة التغطية الإخبارية اليومية على قناة "الجزيرة" التي توفر لهم أخباراً مبثوثة بالنقل الحي المباشر وبصورة واضحة للغاية من فلسطين/ إسرائيل ومن العراق والشيشان وكشمير. ويرى الكثيرون أن مناصرة الولايات المتحدة الأمريكية لحق تقرير المصير والديمقراطية وحقوق الإنسان هي مجرد خدعة في ضوء واقع سياساتها

الخارجية . وربما إذا استثنينا التدخل في كوسوفا ، فإن حالات تدخل الولايات المتحدة الأمريكية في دولة الكويت والعراق في حرب الخليج الثانية ، ثم في الصومال يُنظر إليها على أساس أنها عمل مدفوع فحسب باعتبارات المصالح القومية وليس بوحي المبادئ الأمريكية .

وفي حين أن المواطن الأمريكي العادي يطالع جانباً أحادياً فقط من آخر الأحداث التي تصاغ منها العناوين الرئيسية المدوية مثل الهجمات الانتحارية في إسرائيل ، فإنه لا يتلقى بشكل منهمر المشاهد اليومية للعنف والإرهاب الإسرائيليين في الضفة الغربية وقطاع غزة ، ولا يعرض عليه استخدام القوة العسكرية غير المتكافئة ، وأعداد القتلى والجرحى الفلسطينيين ، أو استخدام الأسلحة الأمريكية - بما في ذلك طائرات أف 16 المقاتلة ومروحيات أباتشي التي قدمتها الولايات المتحدة الأمريكية إلى إسرائيل وتم استعمالها - ضد الفلسطينيين بمن فيهم المدنيون في الأراضي المحتلة من قبل إسرائيل . وقد ثبت أن علاقة الولايات المتحدة الأمريكية مع إسرائيل هي أشبه بمانع الصواعق ؛ ففي حين أن البعض في الغرب يقللون من شأن أهمية القضية الفلسطينية ، أو ينكرون وجودها أصلاً ، فإن الاستطلاعات تستمر في تأكيد أهمية هذه القضية بالنسبة إلى المسلمين في كافة أنحاء العالم . وأظهرت دراسة مسحية أجريت في ربيع عام 2001 شملت خمس دول عربية ؛ هي مصر والمملكة العربية السعودية ودولة الإمارات العربية المتحدة ودولة الكويت ولبنان أن «الأغلبية في هذه الدول الخمس جميعها» قالوا إن القضية الفلسطينية هي «أهم قضية بالنسبة إليهم شخصياً» .[12] وأظهر استطلاع رأي على النطاق الدولي قام به المعهد العربي الأمريكي الذي يرأسه جيمس زغبي ، وشمل المسلمين الأمريكيين خلال

شهري تشرين الثاني/ نوفمبر وكانون الأول/ ديسمبر 2001 ، أن 84٪ من العينة المستطلعة يعتقدون أنه ينبغي على الولايات المتحدة الأمريكية أن تدعم إقامة الدولة الفلسطينية ؛ في حين أن 70٪ منهم يعتقدون أن على الولايات المتحدة الأمريكية أن تخفض الدعم المالي الذي تقدمه إلى إسرائيل .[13]

وينظر الكثيرون في العالم الإسلامي إلى سجل الولايات المتحدة الأمريكية الطويل في تأييدها المطلق لإسرائيل على أنه دليل على النفاق الأمريكي . ويظهر هذا النفاق في مستويات المساعدات العسكرية والاقتصادية لإسرائيل ، وسجل واشنطن في التصويت في الأمم المتحدة ، والتصريحات الرسمية الصادرة من قبل المسؤولين في الإدارات الأمريكية ومن كبار المسؤولين في الحكومة الأمريكية ، ومن التصويت في الكونجرس (الذي كان يقابل عادة بمعارضة من الإدارات الأمريكية المتعاقبة في الماضي) لنقل السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى القدس ، والذي يعتبر انتهاكاً مباشراً لقرارات الأمم المتحدة التي ماتزال قائمة منذ أمد طويل .

وتشمل موضوعات السياسة الخارجية الحساسة الأخرى تأثير العقوبات الاقتصادية في أكثر من نصف مليون طفل عراقي بريء مع قليل من التأثير المباشر لهذه العقوبات في نظام صدام حسين ،* والعقوبات المفروضة على باكستان ، مع الفشل في فرض معايير مشابهة على الهند وإسرائيل بسبب برامجهما النووية . إن الإرادة الأخلاقية ، التي تجلت بوضوح تام عند التدخل في كوسوفا ، قد غابت تماماً عن السياسة الأمريكية في نزاعي الشيشان وكشمير . وتحدث مواطن أمريكي اعتنق

* ألقيت هذه المحاضرة قبل قيام الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا بشن حملتهما المشتركة على العراق في 20 آذار/ مارس 2003 والتي أسفرت عن إسقاط نظام الرئيس العراقي صدام حسين . (المحرر)

الإسلام وهو خريج واحدة من أعرق الجامعات الأمريكية ومستشار سابق للحكومة، بنوع من الإحباط الذي يشعر به كثير من المسلمين فقال: «كل مسلم مطلع سوف يشير إلى التواطؤ الأمريكي الغريب في التصفية العرقية والتدمير في الشيشان، وتأييد الولايات المتحدة الأمريكية الضمني للاحتلال الهندي الوحشي لكشمير، وسلبيتها في مواجهة التطهير العرقي الذي حدث في البوسنة، وحتى إصرارها على عدم تحمل أي خسائر من أجل التدخل لوقف التطهير العرقي في كوسوفا. وهذه بؤر توتر داخل ما يسمى "حلقة النار" التي تقع على تخوم العالم الإسلامي حيث يعمل المسلمون على التحرر من الرضوخ تحت أغلال الإمبراطوريات القديمة».[14]

اعتبرت بعض الأنظمة المتسلطة في العالم الإسلامي، وخاصة في آسيا الوسطى، الحرب ضد الإرهاب العالمي بمنزلة ضوء أخضر يتيح لها اتخاذ المزيد من الإجراءات لتقييد سيادة حكم القانون والمجتمع المدني أو قمع المعارضة السلمية. ويستغل الكثير من الحكومات خطر ما تسميه "الأصولية الإسلامية" ذريعة لاتخاذ ردود أفعال وانتهاج سياسات استبدادية والتعامل مع جميع الحركات الإسلامية، المتشددة والمعتدلة على حد سواء، على اعتبار أنها تشكل تهديداً، واصفة الأخيرة بأنها عبارة عن مجموعة ذئاب كاسرة في ثياب حملان وديعة. ويعارض الكثير من الحكومات في الدول الإسلامية والغربية مشاركة أي مرشحين إسلاميين في الانتخابات خوفاً من اختطافهم للانتخابات. وتؤدي هذه المخاوف عادة إلى التعتيم على حقيقة أن الكثير من هذه الحكومات نفسها قد أثبتت أنها غير ديمقراطية وأن لها سجلاً حافلاً في الاستبداد.

يجب أن تظل ردود الأفعال الأمريكية والأوربية متناسبة، بدءاً من الضربات العسكرية والسياسة الخارجية إلى الإجراءات الأمنية الداخلية وتشريعات مكافحة الإرهاب. وسيكون من الضروري إعادة النظر في السياسة الخارجية الأمريكية وإعادة صياغتها، أينما كان ذلك لازماً، للحد من الإرهاب العالمي واحتوائه بفاعلية. ويجب أن تكون السياسات القصيرة الأمد، التي تقتضيها المصلحة والأمن القوميان، متوازنة مع السياسات ووسائل التحفيز الطويلة الأمد التي تضغط على حلفائنا في العالم الإسلامي لحملهم على القيام بعملية مشاركة سياسية تدريجية ومتطورة على نطاق أوسع، والعمل على تقاسم السلطة، واحترام حقوق الإنسان. وسيؤدي الفشل في القيام بهذه الخطوات إلى تكريس ثقافة التسلط والاستبداد وقيمها العلمانية منها والدينية، وتغذية مشاعر العداء المستحكم ضد الولايات المتحدة الأمريكية. وإذا لم تتم معالجة قضايا السياسة الخارجية بشكل فاعل فإنها سوف تستمر في توفير أرضية خصبة لنمو الحقد والكراهية والتطرف، وظهور الحركات المتطرفة وتفريخ مجندين جدد يعملون لحساب أمثال بن لادن في أنحاء العالم.

الخلاصة: تعايش أم صراع؟

يتمثل التحدي السياسي والديني في عالم اليوم، الذي يتجه نحو مزيد من العولمة والاعتماد المتبادل، في التعرف ليس فقط على مصالحنا المتضاربة، ولكن ينبغي علينا أيضاً أن ندرك مصالحنا المشتركة؛ فالسياسة الأمريكية تجاه اليابان أو المملكة العربية السعودية لا تستند بشكل رئيسي إلى شعور بالثقافة المشتركة أو الدين أو الحضارة بل على المصالح السياسية والاقتصادية المشتركة. ويمكن للتعاون أن ينتج عن خلفيات دينية وعرقية

مشتركة، ولكن في الغالب يمكن حدوث التعاون انطلاقاً من إدراك المصالح المتشابهة أو المشتركة.

ويمكن أن يصبح "صراع الحضارات" دعوة واضحة لتسويغ العدوان والحرب. غير أن التهديدات العالمية في المستقبل ستأتي نتيجة لصراع المصالح السياسية والاقتصادية والعسكرية أكثر مما ستنتج عن صراع الحضارات، وذلك لأن أتباع ديانات التوحيد السماوية الثلاث لديهم الكثير من القواسم المشتركة. وبينما توجد اختلافات واضحة في العقيدة والقانون والمؤسسات والقيم بين الديانات اليهودية والمسيحية والإسلام فإن هناك أيضاً عدداً كبيراً من أوجه التشابه بينها؛ فجميع أتباع هذه الديانات يعتبرون أنفسهم أبناء إبراهيم عليه السلام، وأنهم مُوحدون لله، ويؤمنون بالرسل والأنبياء والوحي الإلهي، ولديهم مفهومهم للمسؤولية الأخلاقية وأن الله سوف يحاسبهم على أعمالهم. وتم إدراك هذا المنظور المشترك خلال السنوات الأخيرة عن طريق فكرة التعاليم اليهودية - المسيحية، وهو مفهوم يجري توسيعه ببطء من قبل البعض الذين يتحدثون عن التعاليم اليهودية - المسيحية - الإسلامية.

لقد وقعت صدامات ومواجهات شديدة عبر التاريخ لكنها لا تمثل الصورة الكاملة، فقد حدث تفاعل وتأثير إيجابيان أيضاً. فالحضارة الإسلامية مدينة للغرب لتوفيره العديد من المصادر التي مكنتها من أن تأخذ عنه وتترجم ومن ثم تُطور حضارتها المتقدمة الخاصة التي قدمت مساهمات متميزة في مجالات الفلسفة والعلوم والتقنية، في الوقت الذي انكفأ فيه الغرب ودخل في فترة كسوف خلال فترة العصور المظلمة. وفي المقابل، استعاد الغرب من الحضارة الإسلامية تراثاً فلسفياً وعلمياً مطوراً

وقام بإعادة ترجمة وتسخير تلك المعارف التي أصبحت أساساً لنهضته فيما بعد.

واستفاد المسلمون من إنجازات العلم والتقنية وسخروها بحرية لتحقيق غاياتهم في العصر الحديث. ويواجه المسلمون فترة إعادة دراسة وإصلاح وتجديد من حيث عدة أوجه. وعلى غرار حركة الإصلاح الديني في الغرب في القرن السادس عشر، فهذه ليست عملية غليان فكري وحوار ديني فحسب، بل هي عملية ترتبط بالاضطراب والعنف الديني والسياسي أيضاً.

من المهم أن نميز اليوم بين "اختطاف" الإسلام - أو ادعائه - من قبل المتطرفين وبين الإسلام الذي يعتنقه التيار الرئيسي في المجتمع لكي نفهم أن كافة أعضاء المجتمع الدولي- مسلمين وغير مسلمين على حد سواء - قد علقوا بطريقة أو بأخرى في فخ المواجهة الحالية بين العالم المتحضر والإرهاب العالمي.

إن النزعة المستمرة لدى الكثيرين في رؤية الإسلام ومشاهدة الأحداث في العالم الإسلامي عبر عناوين الصحف الرئيسية المدوية، تقف حائلاً دون اكتساب القدرة على التمييز بين الدين الإسلامي وأفعال المتطرفين الذين يختطفون الخطاب الإسلامي والعقيدة الإسلامية لتسويغ أعمالهم الإرهابية. كما أن ذلك يعزز النزعة الخاصة بمساواة الأصولية الإسلامية والإرهاب بجميع الحركات الإسلامية السياسية والاجتماعية، السلمية أو تلك التي تستخدم العنف. إن تفسيرات طالبان المنغلقة والقبلية والمتشددة للإسلام - ابتداء بالقيود التي فرضوها على المرأة وانتهاء بتدمير الآثار البوذية القديمة - ليس لها سوى علاقة ضئيلة بالعقيدة والشريعة الإسلامية

السمحاء. فقد انتقدت الحكومات الإسلامية والعلماء المسلمون في جميع أنحاء العالم الإسلامي حركة طالبان. وبالمثل، فإن أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة لا يمثلون الإسلام بأكثر مما يمثل الديانة المسيحية أولئك المسيحيون الذين قاموا بتفجير عيادات الإجهاض، أو بأكثر مما يمثل الديانة اليهودية أولئك الأصوليون اليهود الذين اغتالوا إسحق رابين أو بأكثر مما يمثل الديانة اليهودية أيضاً الطبيب باروخ جولدشتاين (Baruch Goldstein) الذي قام بقتل المسلمين وهم يؤدون صلاة الفجر في يوم جمعة داخل الحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل.

ومع ذلك، مازالت هناك أقلية متطرفة خطيرة من الذين عاثوا فساداً في مجتمعاتهم وبثوا الرعب فيها، ابتداء من مصر وانتهاء بجنوب الفلبين. ويظل أسامة بن لادن وآخرون مثله محط إعجاب هؤلاء المتطرفين لأنه يصل إليهم من خلال مظالم حقيقية وأخرى متوهمة وهم يستغلون فئات المضطهدين والمحرومين والمهمشين في المجتمع. ويجب موازنة رد الفعل العسكري الذي يجري تنفيذه في المدى القصير والخاص بإلقاء القبض على المتطرفين وتقديمهم إلى المحاكمة أمام العدالة بسياسة طويلة الأمد تركز على دراسة القضايا الجوهرية التي تولد النزعات الراديكالية وتغذي التطرف.

يواجه المسلمون اليوم خيارات صعبة، فإذا كانت القوى الغربية بحاجة إلى إعادة النظر في سياساتها وإعادة تقويمها، فإن المسلمين المنتمين إلى التيار الرئيسي للإسلام في كافة أنحاء العالم مطالبون بإبداء جدية وبذل جهد أكبر لمعالجة الخطر الذي يواجهه الإسلام من جانب المتطرفين الدينيين. وينبغي على الحكومات التي تعتمد على الحكم السلطوي وعلى القوى الأمنية والممارسات القمعية، أن تفتح أنظمتها السياسية، وأن

تساعد على بناء المجتمع المدني وتقويته، وأن تميز بين إتاحة حرية التعبير والمعارضة التي تمثل التيار الرئيسي في المجتمع وبين التطرف الذي يستخدم العنف الذي يجب سحقه وتطويقه. وتفرز المجتمعات التي تقيد حرية الفكر والتعبير شعوراً بالإقصاء والتهميش والضعف الذي يؤدي عادة إلى ظهور الراديكالية والتطرف. ويجب التغلب على العوائق الدينية الهائلة، ومنها الغلو في النزعة المحافظة لدى عدد كبير من العلماء، وليس جميعهم، وصنوف الفئات الإسلامية الانغلاقية والمتشددة، والأكثر تزمتاً، ومناهج التعليم والتدريب في تلك المدارس الدينية والجامعات التي تكرس استمرارية نشر «علوم الكراهية الدينية»، وترسخ معتقدات المتشددين الذين لا يقفون عند حد رفضهم لغير المسلمين فحسب، بل يرفضون حتى المسلمين الآخرين الذين لا يؤيدونهم فيما يعتقدون به. وسيكون هذا النضال دينياً وفكرياً وروحياً وأخلاقياً، وفي الوقت نفسه، يجب أن يكون في شكل برنامج للتجديد الإسلامي أكثر سرعة وانتشاراً، وألا يكتفي بتقديم إضافات على الصرح الذي شيده الإصلاحيون السابقون، بل يسير أيضاً على نهج الريادة الذي يرسيه اليوم القادة والمفكرون الدينيون المستنيرون الذين يشاركون بشكل أقوى وأكثر فاعلية في عملية واسعة النطاق للاجتهاد والإصلاح.

وسوف تحتاج العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب إلى جهد مشترك وعملية مشاركة بناءة وحوار ونقد ذاتي وتغيير. وإذا وضعنا المتشددين جانباً فإن معظم الانتقاد الموجه إلى السياسة الغربية والأمريكية بالتحديد يأتي من أولئك الذين يحكمون على الغرب من خلال فشله في الالتزام بمبادئه وقيمه. وبغض النظر عن الاختلافات الثقافية فإن المسلمين والمسيحيين يتقاسمون مبادئ دينية وحضارية وقيماً وطموحات مشتركة،

تشمل الإيمان بالله تعالى ورسله وبالوحي، والمسؤولية الأخلاقية، ومبدأ الخضوع للمحاسبة، وقدسية الحياة، وقيمة العائلة، والرغبة في تحقيق الرخاء الاقتصادي، والحصول على التعليم والتقنية، والسلام والأمن، والعدالة الاجتماعية، والمشاركة السياسية، والحرية، وحقوق الإنسان. ويشعر عدد متزايد من المسلمين وغير المسلمين بالقلق حيال الإفراط في الحداثة والعولمة؛ الذي يشمل في نظر هؤلاء ضرباً من العلمانية، التي بدلاً من أن تعمل بدورها على عدم منح امتياز لأي عقيدة دينية مفردة بهدف حماية حقوق جميع المواطنين المنتمين لهذه العولمة، تعتبر معادية للدين في هويتها وفي قيمها؛ كما يشمل التركيز على حقوق الفرد وحرياته التي لا يوازنها أي اهتمام متكافئ بالخير العام؛ بالإضافة إلى رأسمالية السوق الحرة التي لا تتم موازنتها بتحقيق الصالح العام؛ وعملية عولمة تهدد بإيجاد شكل جديد من الهيمنة الاقتصادية والثقافية الغربية، والهيمنة الأمريكية على وجه التحديد.

تشكل مرحلة ما بعد 11 أيلول/ سبتمبر تحدياً للحكومات وصناع القرار والزعماء الدينيين ووسائل الإعلام وعامة الناس، بأن يؤدي الجميع أدواراً مهمة وبناءة في الحرب ضد الإرهاب العالمي. وينبغي أن تكون هذه العملية في شكل شراكة تؤكد المعتقدات والقيم والمصالح المشتركة بيننا جميعاً، وأن تعالج بمزيد من النهج البناء كافة خلافاتنا ومظالمنا، وأن تبني لنا مستقبلاً يستند إلى إدراك أننا جميعاً نواجه عدواً مشتركاً هو خطر الإرهاب العالمي الذي يمكن احتواؤه وإزالته بشكل فاعل عن طريق واحد فقط هو تفهم المصلحة المشتركة واستخدام التحالفات والاستراتيجيات والإجراءات المتعددة الأطراف.

الهوامش

1. للاطلاع على مناقشة للعلاقات بين المسلمين والمسيحيين واليهود في فجر الإسلام انظر:

Jane I. Smith, "Islam and Christendom," in John L. Esposito (ed.) *The Oxford History of Islam* (New York, NY: Oxford University Press, 1999), ch. 8; Bernard Lewis, *The Arabs in History*, rev. ed. (New York, NY: Harper & Row Publishers, 1966), 58 ff.; and Brian Beedham, *Muslims and Westerners: The Reformation of Cultures* (London: The Eleni Nakou Foundation, 1997), 3 ff.

2. للاطلاع على تحليل للنهضة الإسلامية وتأثيرها انظر:

John L. Esposito, *The Islamic Threat: Myth or Reality?*, 3rd ed. (New York, NY: Oxford University Press, 1999); John L. Esposito, *Islam and Politics*, 4th ed.(Syracuse, NY: Syracuse University Press, 1998); and James P. Piscatori and Dale F. Eickelman, *Muslim Politics* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1997).

3. انظر:

Samuel P. Huntington, "The Clash of Civilizations?" *Foreign Affairs* (Summer 1993): 22, 39.

4. المرجع نفسه، ص 31.

5. المرجع نفسه، ص 40.

6. انظر:

Samuel P. Huntington, *The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order* (New York, NY: Simon & Schuster, 1997), 258.

7. المرجع نفسه، ص 217.

8. انظر على سبيل المثال:

Bernard Lewis, "The Roots of Muslim Rage," *The Atlantic*, September 1990, "The Revolt of Islam," *The New Yorker*, November 19, 2001, "What Went Wrong," *The Atlantic*, January 2002; William Safire, "4

Secular Questions," *The New York Times*, March 25, 2002; Charles Krauthammer, "We Can't Blow It Again," *The Washington Post*, Friday, April 19, 2002; and Daniel Pipes, "The New Global Threat," *Jerusalem Post*, April 11, 2001 and "The Danger Within: Militant Islam in America," *Commentary*, November 2001. For a brief critique with quotations from Pipes' writings, see "Who is Daniel Pipes," http://www.cair-net.org/misc/people/daniel_pipes.html.

9. انظر: Eric Alterman, "Media War," *The Nation*.

10. هذا الجزء مأخوذ من كتابي:
Unholy War: Terror in the Name of Islam (New York, NY: Oxford University Press, 2002), ch. 4.

11. للاطلاع على مناقشة لهجمات 11 أيلول/ سبتمبر، 2001 وجذورها وعلاقتها بالإسلام وبالسياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية، انظر:
John L. Esposito, *Unholy War: Terror in the Name of Islam* (New York, NY: Oxford University Press, 2002) and Peter L. Bergen, *Holy War Inc.: Inside the Secret World of Osama Bin Laden* (New York, NY: Free Press, 2002).

12. انظر:
Shibley Telhami, "Defeating Terror: Confront Supply and Demand," *Middle East Insight* vol. XVI, no. 5 (November-December 2001): 7.

13. انظر:
"American Muslim Poll" (Washington, DC: Project MAPS, Georgetown University, 2001), 7.

14. انظر:
Robert Crane, "Re-thinking America's Mission: The Role of Islam," *American Journal of Islamic Social Sciences* (Fall/ Winter 2001).

المراجـــع

"American Muslim Poll." (Washington, DC: Project MAPS, Georgetown University, 2001).

Alterman, Eric. "Media War." *The Nation*.

Beedham, Brian. *Muslims and Westerners: The Reformation of Cultures* (London: The Eleni Nakou Foundation, 1997).

Bergen, Peter L. *Holy War Inc.: Inside the Secret World of Osama Bin Laden* (New York, NY: Free Press, 2002).

Crane, Robert. "Re-thinking America's Mission: The Role of Islam." *American Journal of Islamic Social Sciences* (Fall/ Winter 2001).

Esposito, John L. *The Islamic Threat: Myth or Reality?*. 3rd ed. (New York, NY: Oxford University Press, 1999).

——— *Islam and Politics*. 4th ed. (Syracuse, NY: Syracuse University Press, 1998).

——— *Unholy War: Terror in the Name of Islam* (New York, NY: Oxford University Press, 2002).

Huntington, Samuel P. "The Clash of Civilizations?" *Foreign Affairs* (Summer 1993).

——— *The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order* (New York, NY: Simon & Schuster, 1997).

Krauthammer, Charles. "We Can't Blow It Again." *The Washington Post*, April 19, 2002.

Lewis, Bernard. *The Arabs in History*. Rev. ed. (New York, NY: Harper & Row Publishers, 1966).

——— "The Roots of Muslim Rage." *The Atlantic*, September, 1990.

——— "The Revolt of Islam." *The New Yorker*, November 19, 2001.

——— "What Went Wrong." *The Atlantic*, January 2002.

Pipes, Daniel. "The New Global Threat." *Jerusalem Post*, April 11, 2001.

——— "The Danger Within: Militant Islam in America." *Commentary*, November 2001.

——— "Who is Daniel Pipes." http://www.cair-net.org/misc/ people/daniel_pipes.html.

Piscatori, James P. and Dale F. Eickelman. *Muslim Politics* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1997).

Safire, William. "4 Secular Questions." *The New York Times*, March 25, 2002.

Smith, Jane I. "Islam and Christendom." In John L. Esposito (ed.) *The Oxford History of Islam* (New York, NY: Oxford University Press, 1999).

Telhami, Shibley. "Defeating Terror: Confront Supply and Demand." *Middle East Insight* vol. XVI, no. 5 (November-December 2001).

نبـذة عـن المحاضـر

د. جـون إسـبوزيتـو

يعمل أستاذاً جامعياً وأستاذاً لعلم الأديان والعلاقات الدولية والدراسات الإسلامية في جامعة جورج تاون، وهو المدير المؤسس لمركز التفاهم الإسلامي ـ المسيحي في كلية والش للدراسات الدبلوماسية بجامعة جورج تاون. عمل رئيساً لجمعية دراسات الشرق الأوسط في أمريكا الشمالية ورئيساً للمجلس الأمريكي لدراسة المجتمعات الإسلامية، كما عمل مستشاراً لدى وزارة الخارجية الأمريكية وحكومات ومؤسسات متعددة الجنسيات، بالإضافة إلى شركات وجامعات ووسائل إعلام دولية منتشرة على نطاق العالم. تخصص د. جون إسبوزيتو في الإسلام والإسلام السياسي وتأثير الحركات الإسلامية في المنطقة الممتدة من شمال أفريقيا إلى جنوب شرق آسيا.

يشغل د. جون إسبوزيتو منصب رئيس تحرير موسوعة أكسفورد للعالم الإسلامي الحديث، وموسوعة أكسفورد عن تاريخ الإسلام، وقاموس أكسفورد عن الإسلام، وتشمل كتبه التي ألفها وهي أكثر من 25 كتاباً: **الحرب غير المقدسة: الإرهاب باسم الإسلام**، و**ما يحتاج الجميع معرفته عن الإسلام**، و**الخطر الإسلامي: وهم أم واقع؟**، و**الإسلام: الطريق القويم**، **الإسلام والسياسة**، و**الإسلام والديمقراطية وصناع الإسلام المعاصر** (بالاشتراك مع جون فول)، و**الإسلام السياسي: راديكالية، ثورة أم إصلاح؟**، و**إيران عند مفترق طرق** (بالاشتراك مع آر. كيه ـ رامزاني)، و**الإسلام: النوع والتغيير الاجتماعي** (بالاشتراك مع إيفون حداد)، و**المرأة في قانون الأحوال الشخصية الإسلامي**.



مـركـز الإمـارات للـدراسـات والبحـوث الاسـتـراتيجيـة

ص.ب: 4567 ، أبوظبي ، دولة الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 6423776-9712+ ، فاكس: 6428844-9712+

البريد الإلكتروني : pubdis@ecssr.com ، الموقع على الإنترنت : www.ecssr.com

ISSN 1682-122X

ISBN 9948-00-515-5

9 789948 005155